

# المصفا

١٣١٥

مصر في يوم السبت ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٧ الموافق ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٩

## ﴿ فلسفة الحرب الحاضرة ﴾

حكومة صغيرة ينقص عدد رعاياها عن مليون وأحد تهضم حقوق دولة عظيمة رعاياها ثلاثمائة مليون أو يزيدون. ثم تنذرنا بالحرب ثم تبدأها بالقتال ويكون لها الظفر غير مرة ان هذا الشيء عجاب !! اما هضم الحقوق فهو دعوى بريطانيا العظمى على الترانسفال الصغرى ويقول السياسة من غير الانكليز انه لا ذنب للترانسفال الا الاباء من ضم انكلترا والمحافظة على استقلالهم في جولرها وان الانكليز خلقوا للترانسفاليين ذنباً ليتخذوه حجة لهم امام أوروبا على اضطرابهم للايقاع بهم وعدم خروجهم عن سنن التمدن والانسانية في الزامهم باجابة ما يطلبون. وان غرض الانكليز الحقيقي الاخذ بشار الدكتور جسون الذي نكل به الترانسفاليون من قبل والتمهيد لمشروع سسل رود في جمل القسم الشرقي من أفريقية مستعمرة انكليزية من رأس الرجاء الصالح الى الاسكندرية. ومهما يكن من الامر فحسب الترانسفال ان معاهلتها مع بريطانيا العظمى في السلم والقتال. معاملة الاكفاء والاقتيال. الجرائد في الغرب والشرق تصف الانكليز بالطمع والجشع ويرى ساستها انه

ليس لهذه الدولة حجة قيمة في التعدي على الترانسفال ويقولون ان  
البريطانيين المقيمين في تلك الجمهورية لتجارة واستخراج المعادن لا يشكون  
من حكومتها ولا يبالون بحقوق الانتخاب لانهم لا ينوون الاقامة فيها  
واتخاذها وطناً وان حكومتهم هي التي حملتهم على التبرم والشكوى لتتخذ ذلك  
ذريعة لمناسبة تلك الجمهورية كما صرح بذلك بعض من عاد الى أوروبا منهم  
في هذه الايام. ونحن نقول ان هذه الحجة الاكسائر الحجج التي تحتج بها  
الدول الاوربية في فتوحاتها - تمويهاً للمدوان. وارضاءاً للتمدن بالبهتان. كنشر  
لواء الحرية. واستبدال التمدن بالهمجية. وابطال الاسترقاق. وتعميم المعارف  
في الآفاق. اتحاد المعنى وتعددت العبارات. والصيد واحد والشباك مختلفة.  
وانما يمدل الاوربيون بعضهم بعضاً بالخروج عن التملات المعتادة حسداً من  
عند أنفسهم للدولة السابقة في ميدان الاستعمار. وما الاستعمار الا قروح  
وتقلب بالحملة والحداع مهما افادا والا فبالحرب والجلاد. وما كانت الحرب  
غاية يلجأ اليها بعد فراغ جراب الحيل الا لاجل الاقتصاد في المال  
والرجال. لا كما يقولون انها شفقة على الانسانية. وأدب من آداب المدنية.  
فقد كان تشكيل الانكليز بدر اويس السودان. مما تشمر له الابدان. ويدل  
على ان الاوربي لا يرى غير قومه من نوع الانسان. - هذا والانكليز اُبعد  
الامم الاوربية من الضراوة بالحرب. وأقربها الى اختيار السلم.

هذا مجمل ما يقال في انتقاد الاوربيين على الانكليز وفي حقيقة امرهم  
وأما هذه الجرائد الشرقية فهي ترجع صدى اقوالهم وتضيف اليها ما شاءت  
السياسة من ذم الانكليز ونكبيهم صراط العدالة وانحرافهم عن سنن الفضيلة  
وأما نحن فنقول ان انكسرت ماجاءت في المدينة أمراً فرياً فان طبيعة الاجتماع

البشري كطبيعة كل موجود حي - ألم تر الى كل جسم حي من نبات وحيوان كيف يطلب التغذية من الخارج مادام حياً وما يدخل في بنيته من الغذاء يثميهِ ويمدّه في بعض الاطوار ويحفظ عليه وجوده وقوته في طور آخر حتى اذا ما اذن باري الكون بالحلّاله وعدمه يمجز عن تناول الغذاء الكافي لحفظ وجوده فتفتك فيه عوامل الانحلال حتى يصير الى الفناء والاضمحلال - وقد تعطل وظائف التغذي في الجسم لعلّة عارضة ثم تزول تلك العلّة بسبب من الاسباب كالمعالجة العمالية فترجع الى الجسم صحته فيعود متغذياً يطلب المدد لقوام حياته من الاجسام الاخرى التي من شأنها ان تكون غذاء له - هذا الذي نشاهد في اشخاص الحيوانات والنبات في الادوار الثلاثة - النمو والوقوف والانحلال الذي يعقبه الفناء - هو بعينه مشاهد في الامم والدول - وهو فيها اضطراري لا اختياري وان كانت جزئيات الاعمال تؤتي من الافراد بالاختيار - فليس في طاقة الدولة القوية ذات الامة العزيزة ان تمتنع عن طلب السيادة على غيرها وتوسيع دائرة نفوذها في الامم الضعيفة كما انه لا طاقة للافراد من الانسان وغيره من الاحياء على ترك الغذاء بالمرّة لان مصادمة الطبيعة ومقاواتها لا يبطال عملها مما لا يستطيعه الناس - نعم يقدر الانسان على تأخير الغذاء عن وقته او تقديمه عليه ويفضل غذاء على آخر مما في استطاعته تناوله، والترجيح في هاته الاحوال تابع للعلم بالمصلحة والمنفعة ولكنه لا يترك الغذاء بالمرّة مع الاستطاعة عليه الا لعلّة في الجسم او النفس - وكذلك شأن الدول في الفتوح والاستعمار لا تتركهما الا بعلّة المعجز ولكنها تختار بلاداً على اخرى وقد تعجل بشيء من ذلك او تؤخره عن الوقت المناسب اذا اقتضت المصلحة ذلك - كما تؤكل الفاصكة قبل بدوّ صلاحها

والطعام قبل نضجه اما لشدة الجوع واما خشية ان يحال بينها وبين الآكل .  
 وكما يؤكل اللحم قديداً حيث لا يوجد غريزاً طرياً . لا جرم ان تعدي انكثرا  
 على الترانسفال ومحاولة التهامها من الابتسار ( أخذ الشيء قبل أوانه) ولكن  
 الشديد القرم يأكل اللحم التي وربما حملته الضراوة على نهش لحوم الاحياء .  
 لا يرتاب أحد في ان شعب هذه الجمهورية شعب حي حافظ لوجوده متمتع  
 بجميع ما تتمتع به الامم الحية من المزايا الصورية والمعنوية . ومن طبيعة الجسم  
 الحي المتمتع بالمزاج المعتدل الصحيح ان يدافع ما يمرض لمزاجه ويقاوي  
 ما يهدو على حياته ولا يستسلم لعوادي البلاء . ويستهدف لعوامل الفناء . ومن  
 يقول ان طبيعة الاشلاء . كطبيعة اولى القوة من الاحياء ؟؟ فما ظهر من  
 كل من انكثرا والترنسفال هو ما اقتضته طبيعة عمراتها فلا لوم على الاولى  
 ولا تثريب . وليس ما جاءت به الثانية بالامر العجيب . وهذا هو ما وعدنا  
 ببيانه في المنار الماضي

يقال ان بين الانسان وبين سائر الاحياء فرقا فهو يعمل منفردا ومجتما  
 بالاختيار لا بسائق الفطرة فقط ويوصف بالاعتدال في أعماله ومناشئها من  
 اخلاقه وسجاياه فيمدح . ويرمى بالتفريط أو الافراط في ذلك فيندم . وهو  
 مكلف بان يعدل في تصرفه بالطبيعة ويقف في تحصيل مطالبها عند الحدود  
 المشروعة والمعقولة . واننا نرى الترانسفال في المدافعة أقرب الى الافراط من  
 انكثرا في التمدي والمهاجمة . بل انها هي التي أُلجأت انكثرا للحرب بانذارها  
 الشديد المعلوم فكانها هي التي ابتدأت الحرب بل هي التي ابتدأتها حقيقة .  
 نقول ان هذا الكلام صحيح وان حكومة الترانسفال قد تهورت ولكن لها  
 عذرا في التمهيل بالحرب لانها علمت ان ذلك واقع ماله من دافع ونز الفائدة

في التأخير انما هي امدوتها حيث تستكمل جمع القوة اللازمة لبادتها . على  
انها تلام على عدم التساهل في الدفع بالتي هي احسن قبل ان تكتب انكترا  
الكتائب وتسوق الجنود الى الحدود . اللهم الا ان تكوني على بينة من ان  
تلك المطالب تعبت باستقلالها فانها حينئذ يصدق فيها قول الشاعر  
اذالم تكن الا الاسنة مركباً \* فلايسع المضطر الا ركوبها

فكيف بها اذا شعرت بان غاية هذه المطالب محو وجودها القومي وادغامها في  
المستعمرة الكبرى التي تجدها بريطانيا العظمى في انشائها وقد تجاوزت في التمهيد  
لها من الشمال الخرطوم وأم درمان وتعلم (أي الترنسفال) انها هي العقبة الكاؤود  
التي لا بد من تمهيدها في الجنوب ؟ أليست جديرة في هذه الحال بأن تمثل  
بقول أبي الطيب

واذا لم يكن من الموت بد \* فمن العجز ان تعيش جباناً ؟

بلى - الجبن والاستبسال . هما عاملا الفناء والزوال . وعاقبة الشجاعة والاقدام .  
اما الظفر واما ميتة الكرام . وليس استبسال شعب البويرس واستماتته لاجل  
الامر الثاني (ميتة الكرام) كما يظن اكثر الناس بل هو يطعم بالظفر بمدوه  
ويرجو ان يكون له القلب عليه لاسباب منها اعجابه بنفسه واستماتته بخصمه  
لا سيما بعد الظفر بحملة الدكتور جمنون الانكليزي فان البويرس يعتقدون بانفسهم  
انهم أشجع الخلق وأبسلهم والباسل لا يستبسل . ومنها ان التعليم العسكري عام  
فيهم ومتى دخل المدوة بلادهم فانهم يتألبون عليه كباراً وصغاراً نساء ورجالا  
حتى يظفروا به فيقتلوه او ينفوه او يبنيدهم عن آخرهم وبمثل هذه المزية  
تحفظ الشعوب الصغيرة استقلالها وتركها حل الدمار بأقوى الامم وأعظمها  
... ومنها ان لهم من ولاية الاورانج الحرة حليفاً وظهرآ . ومنها انهم

مدافعون وخصمهم مهاجم ومنها انهم يتوقعون ان يثور أبناء جنسهم في مستعمرة الرأس على خصمهم اذا لم يبقوا فيها حامية كافية لمنع الثورة. وابقاء الحامية مفرق لقوتهم ومضعف لهم والظاهر ان بريطانيا العظمى على عظمها انما تقدر على التنكيل بالفرنسفال بالمطاولة لا بالمناجزة. ولا عار على امة ان تقلبها امة يزيد عدد رعاياها على عددها اكثر من ثلاثمائة ضعف. ولها الفخر الاكبر والشرف الأعلى في الشجاعة اذا هي طاولتها في القتال. او كانت الحرب بينهما سجال. فكيف اذا هي ظفرت ولو في بعض الاحوال -

هذا خير مثال للامم الحية والامم التي تعد في الموتى وبه يفهم قول اللورد سالسبري ان الامم الحية تزداد حياة والمائة تزداد موتاً. ولكننا يدينا ان الامم التي تظهر فيها الانحلال يجوز ان ترجع الى صحتها بازالة العوارض التي طرأت عليها فقلبت التحليل على التركيب. فعسى ان يكون في كلامنا موعظة وذكري (وما يتذكر الا عن ينب)

## باب التوسل والتعلم

( اميل القرن التاسع عشر )

(٢) من ارسم الى هيلانه في ٦ يناير سنة ١٨٥٠

حدث بالامس بين الساعة العاشرة والحادية عشرة صباحا ضباب كثيف غمر الشاطئ كله والمادة في مثل هذه الحالة ان تدق الاجراس ايذاناً بالخطر فلذلك طفقت اجراس القرية القريبة من السجن تطنطن وتيسر لي ان افهم المقصود من هذه الاشارة. الساحل المحرق بنا ممتلئ بالاطار لان الرمال المتحركة ومستنقعات الماء الراكد والمد والجزر كلها حبال تترقب